بين الواقـع والحلم

فى حياتنا واقع ، وفى حياتنا أيضاً حلم . أَمَّا الواقع فهو جملة الحقائق التى تنظم مسيرتنا فى الداخل والخارج ، وأما الحلم فهو ما نود أن نكونه غدًا أو بعد غد . وشعوب كثيرة تماثلنا فى ذلك ، ولكن لعلنا وحدنا الذين يتصرفون أحياناً بوحى من حلمهم لا من واقعهم ، فيتعرضون بذلك لمتاعب ما كان أغناهم عنها . فما هو واقعنا ؟ وماهو حلمنا ؟

واقعنا فى الداخل أننا نُجاهد بصبر وعزم تحديات محفوظة، مثل تهلهل هياكلنا الأساسية ، والاختلال المفزع بين إنتاجنا واستهلاكنا ، وديوننا ، وتكاثرنا المتصاعد ، وآفاتنا الاجتماعية المهلكة . . وواقعنا فى الخارج أننا ذو علاقة خاصة بالولايات المتحدة ، ومعاهدة سلام مع إسرائيل ، ومقاطعة شبه شاملة مع البلاد العربية . أما حلمنا فهو أن نحقق نهضتنا من ناحية ، وأن نستعيد دورنا العربى التاريخى من ناحية أخرى . وكما قلت ، فطبيعى أن يكون للأمة واقع وحلم ، وطبيعى أيضاً أن تسعى إلى تحويل الحلم إلى واقع ، مع الحرص على إيجابيات واقعها الأول ، أما غير الطبيعى فهو أن تعمل بوحى من الحلم كأنه واقع ، أو أن تتجاهل الواقع الحقيقى .

من حقنا وواجبنا أن نحتج على كل عدوان ، وأن نغضب لأى خرق

للقانون الدولى . . ومن حقنا وواجبنا أن نهدى عواطفنا الطيبة ، وأن نسدى نصائحنا الخاصة ، بل وأن نسعى فى الخير ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ، ولكن ليكن ذلك دائماً فى نطاق الواقع ودون تجاوز للحقائق ، ومع الحرص الكامل على المصلحة العامة ، واستقرار الوطن وأمنه وسلامته وكرامته . ودون تورط فى فعلٍ أو موقف من شأنه التفريط فى صديق مؤكد لمصلحة صديق محتمل ، أو زلزلة واقع راهن لحساب حلم لم يتحقق بعد . ولا يعنى هذا أننى مع الواقع دون قيد أو شرط ، ولا أننى ضد الحلم بحالٍ من الأحوال ، ولكن الأمانة والإخلاص والصدق تقتضى أن أعلن ما كتبت .

(١٩٨٦/١/٢)

القومية العربية بين الواقع والحلم

القومية العربيةُ حلم كل عربى أمين ، أَمَّا واقع العرب فهو ما ترى وما تسمع مما لا حاجة بى إلى عرضه . وللقومية العربية أعداء فى الخارج لايمكن الاستهانة بقوتهم ، كما أن لها معارضين داخل كل بلد عربى لأسباب شتى ، وفضلاً عن هذا وذاك فهى تحتاج إلى خطوات تمهيدية حتى يصلب عودها وتنضج فكرتها وتستقر فى القلوب والإرادات .

من سوء الحظ أن العرب تصرفوا فى ظروف تاريخية خطيرة بوحى من الحلم كأنه واقع ، متجاهلين الواقع الحقيقى ، فباءوا فى كل مرة بخسران عظيم . فعلوا ذلك عام ١٩٤٨ عندما قرروا خوض الحرب دفاعاً عن فلسطين ، معتمدين على وَهْمِ وحدتهم ، متجاهلين أنهم فى واقعهم بلدان متفرقة خاضعة لأكثر من استعمار غربى ، ولو وقفوا عند حدود واقعهم لكان الفلسطينيون جميعاً اليوم فى فلسطين تحت أى صيغة يتم الاتفاق عليها بينهم وبين اليهود ، ودولة الانتداب ، وهيئة الأمم ، وحتى لو كان قُضِىَ عليهم بظلم قليل أو كثير فالظلم لايدوم ، وحسبك أن تذكر ما يجرى اليوم فى جنوب إفريقيا ، ولكن التعامل مع الحلم ضيع فلسطين ، وشرَّدَ الفلسطينيين ، وأنزل الهزيمة بالدول العربية مجتمعة . وفعلوا ذلك تحت مظلة زعامة عبدالناصر ، فارتفع صوت الوحدة ، حتى خال الأعداء أنها قريبة حقًّا ، وغطى على أصوات كثيرة كانت

تغمغم هنا وهناك ، مكرسة التفرقة ، بل مضمرة العداء ، وجاءت النتيجة مفجعة مخزية يوم ٥ يونيو الأسود .

خير ما يقال للعرب فى حاضرهم المحزن ما نادَى به الشيخ النبيل سقراط : «اعرف نفسك» . وخير ما يُذَكَّرُون به قول القدير المتعال : ﴿إنَّ الله لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ، وليذكروا بعد ذلك وقبل ذلك أن وحدتهم هى الحُلم المنشود لا الواقع القائم ، وأن دورهم اليوم أن يحققوا السلام على أساس الواقع ، وأن يبحثوا عَمَّا لا يختلفون فيه ليعملوا فيه بهدوء وإخلاص ومثابرة ، ولن يتهيأ ذلك مثلما يتهيأ فى مجالى الثقافة والتكامل الاقتصادى ، وليتركوا الباقى للزمن ، وهو طبيب حكيم فى جبر الكسور وتضميد الجراح واسترداد الحقوق الضائعة .

(١٩٨٦ / ١ / ٩)

نحو وحدة عربية جديدة

تاريخنا الطويل يشهد بأن موقعنا المتوسط بين جناحى العالم العربى جعلنا الملتقى والمنطلق لتياراته المتضاربة ، كما فرض علينا دورًا نؤديه لضم الجناحين ، أو مَدِّهما بالقوة التى تمكنهما من التحليق ، أو فى الأقل دَفْعِ الأذى عنهما ، وكأنما ندفعه عن أنفسنا . وإنْ أردت شواهد على ذلك فارجع إلى العهد الفاطمى ، أو عهد صلاح الدين ، أومحمد على ، أو جمال عبد الناصر . بل ارجع إذا شئت إلى العصر الفرعونى نفسه .

من أجل ذلك حق لنا أن نقول عن دورنا العربى : إنه قَدَرُنَا الذى لا فكاكَ منه . ولكن الزمن تغير ، فما كان صالحًا للأمس لم يعد صالحًا لليوم . اليوم تقوم على ساحة العالم دول عملاقة تغطى استراتيجيتها خطوط الطول والعرض ، وتتدفق مسئولياتها ومصالحها بغير حدود . وتهيأ المسرح لرواية جديدة ، وبالتالى يجب أن تتغير الأدوار ، وأن تتساءل الأمم الصغيرة عَمَّا بقى لها فى العالم الجديد من دور يناسب حجمها ويليق بمجدها معًا .

ولأن هذا السؤال لم يستوعبه محمد على ولا جمال عبد الناصر فقد انتهى كل منهما بنكسة أَوْدَتْ به وأوشكت أن تودى بوطنه . فهيهات أن نلقى اليوم ما يليق بنا فى مجالات الزعامة أو القوة أو السياسة ، ولكنَّ

أمامنا مجالاً آخر فى الحضارة بما تحوى من تراث ومعاصرة ، وهو القيمة الحقيقية التى تعتز الإنسانية بإبداعها فوق الأرض . وفى هذا المجال تُقاس الهمم لا بالحجم ولا بالكثافة ولا بالقوة ، ولكن بالقيمة والفائدة وحُسْن الأَثَر .

إن دورنا الحقيقى أن نتعلم ونتثقف ونبدع ، وأن نعطى العالم مثلما نأخذ منه . وحَذارِ أن تظن أننى أدعو إلى الانعزال عن الأمم العربية ، ولكننى أدعو إلى وحدة تنهض أساساً على التكامل الاقتصادى والثقافى والعلمى ، بعيدًا عن التحدى والاستفزاز وتبديد المال فيما لايفيد . فلنعرف دورنا ، ولنتهيأ لإتقانه ، ولنتخلَّ عن أحلام مَضَى عهدها وانقضى ، ولنؤمن بكل قوة بأن دورنا الجديد أعظم من سابقه وأبقى .

(١٦ / ١ / ١٩٨٦)

هـذا العيـد

مازلنا نعتبر يوم ٢٢ فبراير عيدًا للوحدة ، وقد يبعث ذلك فى حالنا الراهنة الدامية المتردية على الأَسَى ، أو إنْ شئت على السخرية . ولكنَّ الإصرار على تكريسه عيدًا برغم ذلك تذكيرٌ لا بأس به بطموحٍ قديم إلى تحقيق حُلم للقوة والمجد ، ومواجهة التحديات بقلب واحد عامر بالثقة، مستند إلى نُبل أثيلٍ ، وماضٍ عريق متطلع إلى غدٍ حافل بالرغبة الصادقة فى التحرر والنهوض وتحقيق الذات .

وقد خرجنا من تلك التجربة المرة بيقين بأن السياسة بحر يموج بالإغراء والشقاق ، وتصطخب أمواجه بالأحقاد والأنانية ، وأنَّ على العرب إذا التمسوا لأنفسهم مرفأً فى هذا البحر فعليهم أن يُنَحُّوا جانبًا ما يختلفون فيه ، وأن يتوجهوا بكليتهم إلى ما يتفقون عليه ، فإن يكن لا مفر من خلافٍ فَلْيُمَا رسوه ماشاء لهم الهوى تحت شرط ألاَّ يجور على مايتفقون فيه ، أو يعطله ، أو يؤجله ، أو يضعفه . وثمة تجارب تؤكد إمكان ذلك، مثل نجاح بعض المؤتمرات العلمية والفنية ، والتعاونيات الاقتصادية ، تمت جميعها فى حمأة الخلافات السياسية .

ولا خلاف بيننا ولا تناقضات فيما يتعلق بالثقافة والاقتصاد . لنا أصول ثقافية مشتركة ، وشغف واحد بأشكالها المختلفة ، ووجداننا وعقولنا متفتحة حَسَنَةُ الاستقبال لما يلقى فيها من إبداعات العقول

والقلوب . كذلك فإن اقتصادنا متكامل فى جملته ، بين شعوب تعج بالسكان ، وأخرى يتوافر لها المال ، ولدينا أرض شاسعة يمكن أن تهيىء لنا الغذاء والكساء ، وأن تحررنا من ربقة الحاجة إلى الغير . وإذا اقتصر السعى على الثقافة والاقتصاد تحققت لنا وحدة الروح والمادة ، وأحرزنا قوة وارتفاعًا على جميع مستويات الحياة . ولعل الهدف الأخير الذى ضللنا السبيل إليه يأتينا بعد ذلك سعيًا بغير جهد ولا عقبات .

يقال : إن المِحَن تُعَلِّمُ الإنسان ، وأظن أنه قد أصابنا منها ما يكفى لتعليم أهل الأرض جميعًا .

(٢٦ / ٢ / ١٩٨٧)

توحيد القطرين

مصر الفقيرة تعانى مُرَّ المعاناة . تخطف لقمتها من بين أنياب وحش الغلاء الضارى . يشغلها الصراع عن المسرات والقيم ، عن كل شىء ، حتى المأوى والدواء . يمضى العُمر فلا يهنأ لها قلب ، أو يتغذى لها عقل . الآباء كادحون ، والأبناء ضائعون ، حياتها حاضر مُحزن بلا ذكريات ولا وعود .

ومصر الغنية تتخبط فى نسيج حضارة أخرى تلهو بثمار الحضارات المتقدمة ، أموالها مُجَمَّدَة أو مهربة أو مبعثرة ، سكرى بالترف . سلوكها استفزازى ، نسيت تماماً أنها منبثقة من مصر الفقيرة ، حتى التحية لا تردها ، واللُّغة لا تتكلمها . لها ملاهيها وفنها ، وأحلامها من صنع يديها .

والحكومة قلقة بين الجانبين ، تتكلم بلغة الفقراء مرة وبلغة الأغنياء مرة ، تود أن تُوَحِّدَ القطرين وتُزواج بين النقيضين ، وفى سبيل ذلك تُنَفِّذ الخطة بعد الخطة ، وتخاطب بلغة ديمقراطية ، وتلوح برايات القانون ، وتدعو إلى العمل والإنتاج .

فى هذا الجو تتكاثر الجراثيم ، ويثب المحبطون فوق القانون ، وتتكاثف سُحب الاحتمالات المخيفة فى أُفق الغيب .

ماذا يُطْلَبُ من الحكومة ـ بالإضافة إلى جهدها المبذول ؟ إنَّ عليها أنْ تُنقى ساحتها من شوائب الاستثناءات وسوء السمعة ، وأن تقدس القانون وحقوق الإنسان ، مع المزيد من العزم والحزم .

وماذا يُطلب من مصر الغنية ؟

عليها أن تصحو من غيبوبة الأنانية ، وسكرة اللحظة الراهنة ، وأن يؤدى أبناؤها للدولة حقوقها ، ويستثمروا فائض أموالهم فى الخطة ، فذلك دفاعًا عن أنفسهم قبل أن يكون دفاعاً عن الوطن .

وماذا يطلب من مصر الفقيرة ؟

لقد تحملت فوق ما يتحمل البشر ، فلم يَبْقَ إلاَّ أن تشحذ وعيها لتعرف طريقها ، وأن تكرر الحكمة التى تعلمتها من تاريخها الطويل ، وهى : أنَّ المحنة لا تقضى على الإنسان ، ولكنها تكشف عن جوهره فَيَسُلَّ إرادته ليتحدى التحديات .

(١٠ / ٩ / ١٩٨٧)

وحدة الأساس

أُعلنت العلاقات الرسمية بين مصر وبلاد عربية كثيرة ، وقد اعترفت رسميًّا بروابط حميمة لم تنقطع يومًا على مستوى الواقع . أمَّا مغزاها فذو تأثير مبين ، وذو صدى طيب فى نفوس ملايين تعتبر شعوبها أمة واحدة، وعلينا نحن أن نجعل منها حقيقة موضوعية ، ومنطلقاً لحياة جديدة طيبة ،ولكن قبل الخطو علينا أن نرسم خريطة بالحدود والإمكانات ، نقرأ فيها بوضوح ماهو الممكن وماهو المستحيل ، وماهو المتاح وماهو غير المتاح ، لنعرف مواقع الأقدام على ضوء الوضع الواقع والسياسة العالمية ، وبهدى من دروس التاريخ القريبة والبعيدة .

وأول ما نبدأ به هو أن نتصدى للمشكلات الراهنة والأخطار المحدقة بما يحقق فى النهاية السلام الدائم العادل للمنطقة كلها . وأُمتنا أشد ما تكون حاجةً إلى السلام والاستقرار لتركز قواها فى بناء وحدتها الاقتصادية والثقافية ، وهى وحدة تعود على جميع الأطراف بالخير والتقدم ، وتضعها فى موقف موحد حيال التحديات الغليظة ، مثل رفع مستوى المعيشة ، والاندماج فى العصر العلمى ، والتحصن بقوة دفاع تحقق لها وزناً وكرامة وأى نجاح نُحرزه فى هذا المضمار جدير بأن يدعو المترددين إلى تجاوز الخلافات ، وتغيير النظرة إلى الحاضر والمستقبل .

والتوفيق فى إقامة الوحدة الاقتصادية الثقافية يمهد الطريق لما هو أخطر وأهم ، بدون تعرضٍ لمشكلات داخلية أو خارجية ، بخلاف البدء بالتطلعات السياسية الذى يتعثر عادة ـ كما عَلَّمَنَا الماضى ـ فى غمار المؤامرات الداخلية والخارجية . وما ينبغى أن ننسى أن تلك التَّطَلُّعات قد أُجهضت ، وما أكثر الدروس والمحاذير . ولكن حمدًا لله ، فإن خُطَّتَنا فى هذا العهد الرابع من ثورة يولية تتسم بالحكمة واليقظة ، وتخلو من الانفعالات والاندفاعات ، فلنأملِ خيرًا ، ولنعمل بغير تَوانٍ ، ولنتوكل على الله .

(١٩٨٧/١٢/٣)